الاتجاه العقلي عند محمد أركون

د. حازم سليمان الناصر
كلية الآداب/جامعة بغداد

محمد اركون ، مفكر عربي الاصل والمنشأ ، فرنسي الجنسية ، عاش في سلك التعليم العام لاكثر من ثلاثين عاما في فرنسا ، ولدراسته المتعددة في الاسلام وأهتمامه الواضح با لفكر الاسلامي ، حتى اطلق كثير من المفكرين على تزايد نشاط محمد أركون ب(الظاهرة الفكرية الاركونية)[١]، ولسعة انتشارها واهميتها أصبحت تفرض حقيقتها على الواقع الثقافي كحقيقة فلسفية ، لايمكن للدارسين ولاسيما المختصين في الفلسفة تجاوزها

امتاز أركون بتخصصات متعددة ومنها التاريخ ،والفلسفة ،والادب ،وعلم الاجتماع والشريعة فضلا عن توجهه والمراحل الزمنية المتداخلة قديمها وحديثها، جاهليتها واسلاميتها ، مسيحتها ، ويهوديتها من حيث العصور ،وكل ذلك مهم عند محمد أركون لكي يرسم لنفسه البنية العقلية الشاملة وادواتها المعرفية المعبرة يرى أركون ان كل مايستهدفه الفيلسوف من نتائج صحيحة لاشك فيها ، والحال ينطبق على التأريخية ،اذ تتغير وجوهه ووظائفه بتغير نظرة العقل اليه كذلك يتغير العقل كذلك يتغير العقل بدوره بتغير النتائج ووجوه الحق التي يستبينها ويتعقلها ويعتمد عليه ليواصل منازعته الحق بالحق وللحق.ولعل أركون يكتشف ان هنالك جدلية بين العقل والحق والتاريخ وان الفكر الغربي (المفكرين) قد استعانوا وتأثروا بالفكر السلامي .

لذلك نجد ان أركون في اغلب كتبه السلامية يحاول ان يبين الفرق بين مفهوم العقل العربي ، ومفهوم العقل الاسلامي ، فهو يرى ، ان العقل الاسلامي ملتزم (بالمعطى المنزل)[٢] اي الوحي الذي يصبح و(النص المقدس) نقطة

انطلاق محتومة في اي عودة لنقذ الماضي العربي – الاسلامي[٣] ، بدءا من ((مسألة نسبة القرآن الى الله))[٤] ، مرورا بتاريخيته وارتباطه، كان العقل يمارس دوره،الذي يتجسد في تقديم الخدمة للوحي ولاسيما فيما يخص الاحكام والتعاليم والارشاد ، ثم الاستنتاج والاستنباط منه، فالعقل اذن تابع وليس متبوع ألا بالقدر الذي يسمح به اجتهاده .

أما العقل الغربي فهو يعبر باللغة العربية ايا تكن نوعية المعطى الفكري الخارج عنه والذي يتقيد، وربما لهذا السبب نجد المسيحيين واليهود ينتجون علومهم الدينية باللغة العربية،كما هو اليوم للكثير من الكتاب المغاربة الذين يكتبون ويؤلفون باللغة الفرنسية ، واركون احدهم ، وهذا دليل على ان اللغه تتأثر بتاريخ الاقوام والجماعات والامم الناطقين ، ولكن يبقى التعامل بين العقل واللغه اوسع واعمق واكثر مرونه وتعددا وانتاجا من العلاقات بين اقوام محدودة وبين لغاتهم وهذاهو التبرير الذي يتخذه اركون لتفضيله واستعماله الدائم لمفهوم العقل الاسلامي على مفهوم العقل العربي ، وهو بذلك يعارض محمد عابد الجابري لأختياره مفهوم العقل العربي متهما اياه ، انه لم يستطع التحرر من شروحه وتأويلاته وتلبساته الذهنوية القومية والعنصرية .

المنهج المعرفي عند اركون :

يحاول اركون ان يضفي الطابع الكاثوليكي أوالاديولوجي على الفكر العربي الاسلامي كرد فعل للدعوة المنهجية العامه على اسلمة المعرفة داخل ثقافتنا الخاصه وهذه حقيقة نجدها في كل منحى من مناحي فكراركون ولا سيما في المصطلح والمضمون فضلا عن الباسه الكلمات العربية الطابع الكاثوليكي أوالزي الغربي الحضاري كالتقديس ، والطقوس وعلم اللاهوت بل انه يمضي الى ابعد من ذلك فيلبس المفكرين المسلمين القدامى قبعه الفلاسفه الغربين العلمانين من ذلك ما فعلة بالماوردي وابي حامد الغزالي ، حيث يقول (نجد من

وجهة النظر هذه ان تنظير الماوردي مثلا أو الغزالي لا يختلف في شـــي عـــن تنظيرات دوركاميم أو علماء الاجتماع الماركسيين بخصوص الدين)[٥] .

نعم المنهج المعرفي لديه يتجسد في الثقه التامة والمطلقة في العقـــل ، وان كل يقين عنده هو ما يقبله العقل وغير ذلك ما يرفضة العقل ، فضلا عـــن ذلك نجد اركون يستخدم المنهج الشكي ولا سيما فيما يتعلق بالنصوص الدينيـــة ومدى صلاحيتها للحياد ، فهو يرفض قدرة النص الديني على تنظيم الانسان من حيث تشريع القـــوانين وتســـيير شـــؤون الانســـان السياســـية والاقتصـــادية والاجتماعية. لذلك نجد ان العقل الغربي عنده مقياس كل حقيقة حتى في الحكـــم على مـــا هو اسلامي ، لانه يحتكم في كل شيء الى الثقافة الغربية وفلاســـفتها ومفكريها . فكل حل لأزمتنا وكل تجاوز لإشكالاتنا ينبغي البحث عنه في تجارب المجتمع الغربي وتبني نفس مناهجه ، لعله الهاجس الغربي الذي يسكن عقـــل اركون والا لما دعانا الى إعادة النظر في محتوى القرآن عبر الدراسات التـــي يقترحها ومنها (نحو قراة جديدة للقرآن)[٦] أو (دراسة الاسلام والعلمنـــه)[٧] أو (الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد)[٨] ، إنه يركز على المبدأ النقدي الرافض لنمطية المجتمع الاسلامي فضلا عن نظرته المتأثرة بالمنهج الغربي اتجاه العاملين فـــي الحقل الديني واعتبارهم سببا من اسباب تخلف المجتمع العربي والاسلامي .

من كل ما تقدم ، لابد ان نؤكد على حقيقة مفادها ، ان اركـــون متـــأثر بالفكر الغربي الى الحد الذي جعله يستلهم منهجه العقلي الغربي ن ذلك العقـــل الذي يحاول بالطرق شتى والوسائل طمس هوية العقل الغربي والإسلامي بـــأي وسيله كانت ومهما كانت التضحيات ،لذلك ليس غريبا ان نجد محمد اركون يتخذ موقفا عربياً تجاه بعض قضايا المجتمع ومنها دعوته بصراحه وبدون اي اكتراث الى تعطيل احكام بعض اللآيات القرآنية أو الغاء العمل بها ، على الرغم من انها تعد قادرة على مسايرة العصر ومعنى هذا واضح في القول ان الاسلام ليس دينا

صالحا لكل زمان ومكان ومن ثم فهو محكوم بمرحلة تأريخية محدودة[٩] ، ربما يكون الزمن قد تجاوزها ، فضلا عن كل ما تقدم فهو يدع الى رفض الجهاد وانكار الشريعة ، بل يصف الاسلام بأنه دين يأمر ويسجن العالم أجمع وهو ايضا مفتوح على العلمانية[١٠].

وعليه فالإسلام عنده موجود في المجتمع حاله حال المسيحية واليهودية، وانه ليس الا تعبيراً كباقي التعابير الاخرى الظاهرة القرآنية والظاهرة الاسلامية.

من هذا المنطلق نجد ان (القرآن) ، عنده نص من جملة نصوص اخرى فيها من التعقيد والمعاني الغزيرة(كالتوراة والانجيل) ،والنصوص المؤسسة للبوذية او الهندوسية ، ذلك ان كل نص تأسيسي من هذا النصوص حظي بتوسعات تأريخية معينة وقد يحظى بتوسعات اخرى في المستقبل[١١]. لذلك ذهب اركون الى التميز بين الظاهرة القرآنية والظاهرة الاسلامية ، فالظاهرة القرآنية مفتوحة على الاحتمالات المعنوية والدلالات كافه ، بحيث لا يمكن تفسير أو تأويل ان يغلفه أو يستنفذه بشكل نهائي[١٢].

اما الظاهرة الاسلامية فهي تأريخية لانها تجسد الخطوط المتضمنةفي الظاهرة الاولى ولا سيما عبر تفسير الفقهاء والمتكلمين للظاهره القرآنية وهم البشر ، ولعل الدليل الذي يبين ان الظاهرة الإسلامية هي ظاهرة تأريخية بشكل كامل وليست متعالية هو ظهورها بخطوط واتجاهات ومذاهب عدة ولم تظهر بخط واحد[١٣] . ومن هذا المنطلق اعتقد اركون ان اطار ادراك الزمان والمكان في القرآن هو اطار اسطوري ، اي خيالي اكثر مما هو واقعي تأريخي ، لذلك كما وضحنا سابقا يطالب اركون بأيجاد قراءة حديثة للنصوص المقدسة تأخذ بعين الاعتبار الظروف التأريخية السائدة انذاك والصراعات العقائدية التي زاد من حدتها تدخل القرآن في بداية القرن السابع الميلادي عاداً ان الاسلام استولى

على انقاض الخطاب الاجتماعي القديم (يقصد قبل الاسلام) من اجل بناء قصر ايديولوجي جديد اي بناء اسطورة[١٤].

ان العقلية التي تنظر الى الاسلام بهذا المنظار لابد ان يكون توجهها توجه عقلاني الحادي ، وهو ما نجده في منهج اركون العقلي الذي يحاول ان يقود دعوة خطيرة داخل الثقافة والفكر الاسلامي فضلا عن قلقه الدائم والتذبذب الفكري الذي خلق عند اركون صعوبة منهجية في فهم افكارة والتي من اسبابها ان اركون لايعرف متى بدأ الايمان بالاسلام لديه ، واين ينتهي به وربما قادته هذه الاشكالية الى تولد الاشكالية الفكرية للظاهرة الثقافية التي يمثلها اركون والتي نجد فيها كل التعقيد ، بل اصبحت مستعصية على كل المناهج بما في ذلك المنهج العقلي .

الفرق بين العقل والخيال عند اركون :

يرى اركون أن هنالك علاقة جدلية بين الخيال والعقل وهذا يعني انه لا خيال بدون عقل ولا عقل بدون خيال ، فهو يعتقد ان مسألة العقل المحض شيءمستحيل تماما[١٥] من هذا المنطلق نجده يقول : (أن إنساناً عاقلا فقط هو تجريد . وهو لا يصادف في الواقع ، وعلية فأن المحتويات وبنى اللاشعور تقدم مشابهات مدهشة مع الصور والوجود اليثالوجوية)[١٦] ذلك راجع الى وجود نسبة من الخيال في العقل ذاته من هذا المنطلق فأن الفصل بين الخيال والعقل غير ممكن اطلاقا وهذا ما يجسده في قوله : (فالفعالية المعقلنة أو العقلانية للروح المعتبرة بصفتها الكل الذي لا يتجزأ لملكات الذكاء والعقل والخيال والمخيال والذاكرة اقول ان هذه الفعالية ليست مستقلة ابدا بشكل كلي عن الخيال/ المخيال وعن الذاكرة الفردية والجماعية)[١٧].

كما يرى اركون ان صعود الطرف العقلاني وتوهمه بأنه يفرض سيطرته على المخيال أو الخيال والقضاء عليه هو الذي اوصل هذه العقلانية الى

مواصفات العقل الحداثي والتكنولوجي البارد والجاف ، وبالتالي اغلق النوافذ المفتوحة للعمل الاسطوري في الروح ومن هنا يرى اركون ان الاسطورة مستمرة لا تموت بل ربما تتدهور الى نوع مبتذل مع الاحتكاك بالشكل العقلاني جدا" والنطق المتطرف ،انها تتحول من شيء مفرغ من الروح والجوهر لانها تبتعد عن النظرة التأريخية النقية وهذا ما حدث للعقل العلموي والوضعي المتطرف ، لقد هاجم اركون الوجه الاخر للعقل التكنولوجي على الرغم من عدم رفضه للتكنولوجيا وانما يرفض هيمنتها الساحقة على مناحي الحياة المختلفة والقضاء على الطبيعة والبراءة والأسطورة (١٨) .

وأخيراً نقول ، فأن المتتبع لكتابات محمد اركون يستنتج بطريقة غير مباشرة ، ان المؤسسة الثقافية الفرنسية ربما الزمته بنوع وأسلوب الكتابه عن الاسلام والا لما كان هذا الاهتمام بمؤلفاته باللغة الفرنسية ، وربما لم تسنح له الفرصة بنوعية الكتابة ن واركون كاتب مستشرق ربما تبهره أشعة الشمس في الجزائر التي قد تزعجه اكثر مما تفرحه . وربما يراودني تساؤل مشروع ، هل ان وجدان محمد اركون وجدان عربي اسلامي وهو لا يحمل الا اسم جزائري عربي ؟!!.

الهوامش والمصادر :

(١) وذلك لكثرة ما كتب عن محمد اركون ، حيث كتب عنه عدد من المثقفين والمفكرين العرب ومنهم عبد الهادي عبد الرحمن (سلطة النص) وعلي حرب (الممنوع والممتنع) وعبد الرحمن الحاج ابراهيم (هاجس الغرب والتوصل المستحيل في كتابات محمد اركون عبد الرزاق واخرين كذلك كتب عن اركون عدد من الرسائل الجامعية منها : القراءة الجديدة للقرآن الكريم (في ضوء ضوابط التفسير) رسالة دبلوم جامعة محمد الخامس كلية الاداب والعلوم الانسانية ١٩٨٨ كتبها عبد الرزاق بن اسماعيل واشراف عليها فاروق حمادة ورسالة كتبها رمضان بن رمضان بأشراف عبد المجيد الشرفي من جامعة تونس الاولى كلية الاداب قسم اللغة العربي عنوانها(خصائص التعامل مع التراث الاسلامي عند محمد اركون) من خلال كتابة قراءاة في القرآن) ١٩٩١- كذلك رسالة بعنوان (اشكالية القراءة في الفكر العربي الاسلامي- نتاج محمد اركون جامعة الزيتونة ، ١٩٩٨ .

(٢) اركون . محمد : من الاجتهاد إلى نقد العقل الاسلامي ، ترجمةهاشم صالح. دار الساقي ، ط١، بيروت ، ١٩٩١ ، ص٢٠.

(٣) اركون. محمد: من فيصل التفرقة الى فصل المقال : اين هو الفكر الاسلامي المعاصر ، ترجمة هاشم صالح ، دار الساقي ، ط١، بيروت ، ١٩٩٣، ص xiv .

(٤) اركون ، محمد:نقد العقل الاسلامي ، ترجمة هاشم ، دار الساقي ، بيروت. ط١ ، ١٩٩١ ، ص .

(٥) محمد ركون ، اين هو الفكر العربي الاسلامي المعاصر ، ترجمة هاشم صالح ،دار الساقي ،ط٢ ،بيروت ، ١٩٩٥ ،انظر المقدمة ص ٩ .

(٦) انظر ، اركون ، محمد:الفكر الاصولي واستمالة التأصيل ، ترجمة هاشم صالح ، دار الساقي ، بيروت ،ط١ ، ١٩٩٩ ،ص ٢٠-٢٢ .

(٧) انظر اركون ، محمد:الفكر الاسلامي قراءة علمية ، ترجمة هاشم صالح ، معهد الانماء القومي ، بيروت ، ط١، ١٩٨٧ ، ولهذا الكتاب طبعة ثانية عام ١٩٩٦ .

(٨) انظر اركون ، محمد: الفكر الاسلامي نقد واجتهاد ، ترجمة هاشم صالح ، دار الساقي ، بيروت /لندن، ط١ ، ١٩٩٢

(٩) اركون ، محمد :الفكر الاسلامي ، ص٨٣ .

(١٠) قسوم ، د. عبدالرزاق : الفكر العربي الاسلامي المعاصر ، دار عالم الكتب ، ط١ ، الرياض ، ١٩٩٧ ، ص ٢٠٢ .

(١١) اركون ، محمد : الفكر الاصولي واستمالةالتأصيل ، ص ٣٥ - ٣٦.

(١٢) الشياب ، د. محمد خالد :الرؤية الاركونية للخطاب القراني ، بحث منشور في المؤتمر الرابع للجمعية الفلسفية الاردنية في نيسان ٢٠٠٢ .

(١٣) المصدر نفسه .

(١٤) اركون ، محمد: الفكر الاسلامي ، ص ٨٣ .

(١٥)

(١٦) اركون ، محمد : الفكر الاصولي ، ص ٢٨٠ .

(١٧) اركون ، محمد : الفكر الاصولي ، ص ٢٨٠ .

(١٨) اركون ، محمد : الألسنة في الفكر العربي ، ترجمة هاشم صالح ، دار الساقي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ص ٦٣١.